العدد السابع عشر

المحور : المرجعية والدين والمجتمع والدولة

الدين والمجتمع والدولة في العصور المسيحية القديمة والوسطى

حاتم الطحاوي *

حفلت الحياة الدينية لدى الإمبراطورية الرومانية والشعوب الخاضعة لها ـقبيل ميلاد السيد المسيح بعدة قرون- بالعديد من العبادات الشرقية والغربية, كديانة الإله اليوناني ديونيسيوس (Dionisius) أو ديانة كيبيلا (Cybelle) في آسيا الصغرى والإله أدونيس في الشام, وإله الشمس مثرا (Mithra) في بلاد فارس التي وصلت معابده حتى مدينة لندن في القرن الأول الميلادي, فضلاً عن ديانة إيزيس (Isis) في مصر التي امتدت حتى روما. حتى أن المؤرخ الروماني الشهير تاكتيوس (Tacitus) يذكر أن الإمبراطور تيبيريوس (14-37) (Tiberiusم) قام بنفي حوالي أربعة آلاف من أتباع الربة إيزيس من مدينة روما بالإضافة إلى اليهود إلى جزيرة سردينيا.

غير أن ديانة إيزيس عادت بعد ذلك بوقت قليل إلى روما من جديد. كل ذلك فضلاً عن انتشار بعض الديانات الغربية التي تسللت إلى الإمبراطور الرومانية عبر بلاد الغال (فرنسا) والجزر البريطانية. وعلى الرغم من استمرارية تقديم القرابين للآلهة اليونانية والرومانية وكذا الاحتفالات الشعبية لكل من زيوس وأثينا وأبوللو وجوبيتر, فقد اهتزت هيبتها بفضل ضجر السكان من تلك الشكليات المتوارثة, ورغبتهم في التطلع إلى منظومة دينية أكثر رقياً. كما قويت مسألة عبادة وتأليه الأباطرة قبيل القرن الأول الميلادي, لكنها تحولت أيضاً لتصبح مجرد عبادة شكلية أيضًا.

وهكذا ولدت المسيحية وسط مناخ روماني استمد جذوره الفكرية أولاً ـ من الفلسفة والتراث اليوناني, فضلاً عن المناخ الفكري للشعوب الشرقية الخاضعة.

وعندما ولد السيد المسيح في فلسطين على عهد الإمبراطور أغسطس (Augustus) (ت 14م), كان المثقفون الرومان قد بدأوا في الضيق ذرعاً من قضايا العبادة غير المقنعة فكرياً بالنسبة إليهم, كتقديس العبادات الوثنية, الشرقية أو الغربية السابقة, وحتى مسألة تقديس الأباطرة, مما دفع البعض منهم إلى العودة إلى المعين الفلسفي اليوناني, الذي وجدوا فيه ملاذهم الفكري الأخير. فاتجه العديدون إلى الفلسفة الرواقية, غير أنها أيضاً, لم تلبِ تماماً احتياجاتهم الروحية.

وتكاد الوثائق البردية المتعلقة بالمسيحية والمسيحيين الأوائل في القرنين الأولين الميلاديين تتصف بالندرة, وذلك لأن المسيحيين الأوائل كانوا يعتنقون دينهم الجديد بشكل

سري, حتى لا يتعرضوا للمضايقات والاضطهادات من قبل السلطة الرومانية. وهكذا انبثقت المسيحية من فلسطين لتنتشر وسط بلاد الشام والولايات الرومانية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط حتى نهاية القرن الأول الميلادي, كما زحفت إلى العاصمة الرومانية, روما, منذ وقت مبكر للغاية, وهو ما عرض المسيحيين لقرارات تعسفية, فقد ذكر المؤرخ سويتونيوس أن الإمبراطور كلاوديوس (41-54 Claudiusم) أصدر مرسوماً بطرد كافة المسيحيين من مدينة روما, تحت دعوى أنهم قد أثاروا القلاقل والاضطرابات بوحي من تعاليم السيد المسيح. والملاحظ أن المرسوم وصفهم باليهود, لأن الذهنية الرومانية عدت المسيحيين الأوائل طائفة من اليهود. وبالمثل, قام الإمبراطور نيرون بالبطش بالمسيحيين حيث قام بإلقاء مسيحي روما في النار التي أشعلها بالمدينة (عام 64م).

كما أن الإمبراطور تيتوس (79-81م) الذي كان يدرك الاختلاف بين الديانتين اليهودية والمسيحية, لم ينج من السقوط في فخ النظرة الرومانية التقليدية القائل بأن المسيحية هي مذهب انبثق عن اليهودية. وهكذا فقد اعتقد أنه بتدميره للمعبد اليهودي في القدس, فإنه بذلك كان يقضي على جذور الشجرة التي تخرج منها الديانتين, وبالتالي فإن المسيحية سوف تسقط كثمرة يانعة بعد اجتثاث الجذور.

وهكذا اختلط الأمر في بدايته على الرومان, فاعتقدوا أن المسيحية هي فرقة يهودية جديدة, خاصة وأن المسيحيين رفضوا, كاليهود, مبدأ عبادة الإمبراطور الروماني أو إضفاء قداسة إلهية عليه.

وهكذا, فعلى الرغم من التسامح السابق الذي أبدته روما الوثنية تجاه مختلف العبادات الشرقية والغربية, فإن الأمر اختلف تجاه المسيحية. وربما كان ذلك لأن الأباطرة اعتقدوا أن المسيحيين, بوصفهم معبرين عن تجمعات فعلية تمارس طقوس عبادتها في سرية تامة, يهددون النظام الإمبراطوري, فكان من السهل على السلطة الإمبراطورية توجيه تهم الخيانة العظمى Maiestas إليهم, حيث جرى وصمهم أيضاً بكافة ألوان الشرور التي تصيب الإمبراطورية الرومانية.

وعلى الرغم من هذا كله, فقد انتشرت المسيحية أولاً في أوساط الطبقات الاجتماعية الدنيا من المجتمع الروماني, ثم أخذت تتسرب إلى الطبقات العليا عبر الأرستقراطية الرومانية. غير أن إقبال الطبقة العليا لم يكرس تماماً إلا بفضل مرسوم ميلان الذي عقد بين الكنيسة والدولة (313م).

ويشير المؤرخ الكنسي الشهير يوسابيوس القيساري (Eusibius of Caesarea) في حديثه عن الانتشار الأول للمسيحية في القرن الأول (لقد وجدت كنائس يتردد عليها الآلاف من المسيحيين في كل مدينة وقرية, وبدا الأمر كما لو أنه مثل جرن حصاد يعج بالناس...).

والحقيقة أن المسيحية قد سارت في طريق طويل معبد بالدم, من أجل إثبات ذاتها ونيل الاعتراف الروماني بها على الرغم من استمرار السياسة التي اتبعها خلفاء نيرون: تراجان, وهادريان وأنطونيوس بيوس وماركوس أوريليوس في اضطهاد المسيحيين.

ولدينا وثيقة منذ عهد الإمبراطور تراجان (98-117م), هي عبارة عن رسالة أرسلها إليه أحد حكامه على منطقة بيثينيا (آسيا الصغرى), ذكر فيها الأخير أنه قام بالعفو عن الذين تأكد أنهم غير مسيحيين وذلك بعد تقديمهم القرابين لتمثال الإمبراطور وقيامهم بسب ولعن المسيح, أما الذين أعلنوا مسيحيتهم, وتمسكوا بعدم تقديس تمثال الإمبراطور, فضلاً عن رفضهم تقديم القرابين له, فقد قام بإعدامهم أمام الجميع. ولدينا أيضاً رد الإمبراطور الروماني تراجان الذي جاء مؤيداً لما فعله تابعه.

وبانتهاء القرن الميلادي الأول, أتضح أن ما فعله المسيحيون قد ساهم في إدراك الوعي الجمعي الروماني بأنهم أصحاب ديانة جديدة ومختلفة, بعد أن رفضوا أداء الخدمة العسكرية في الجيش الروماني, وأخذوا في ممارسة عقيدتهم بشكل سري, كما اتخذوا الأحد, بدلاً من السبت, عطلة دينية. وكان من الطبيعي إزاء البعد الاجتماعي الموجود في المسيحية والتفات أفراد الطبقة الدنيا حولها, أن اعتقدت السلطة الرسمية الرومانية أنها أمام مشكلة اجتماعية كبرى تقوض أسس المجتمع الروماني.

كذلك الأمر إذ نظر المثقفون الرومان في القرن الميلادي الثاني إلى المسيحية بوصفها ديانة شريرة وفارغة, وصمت معتنقيها بالإلحاد والخروج عن النظام الديني الروماني وموروثاته المقدسة. فقد نظر إليها المؤرخ تاكتيوس وكذا الأديب السياسي الروماني (بليني الأصغر Pellini) نظرة استهجان وازدراء باعتبارها تعتمد على مجموعة خرافات مهلكة لا طائل من ورائها, كما وصفوا مبادئها بالتفاهة والتطرف, وأن المسيحيين الجدد ما هم إلا مجموعة من ضيقي الأفق, المتعصبين للخرافات. بل إن تاكيتوس تجرأ ووصفهم بأنهم كارهين للبشر !

وباختصار شديد جرى وصم المسيحية بالشر والإلحاد, وبأنها تكمن وراء كل قسوة القدر التي تنال من المجتمع الروماني, وحسب كلمات ترتوليان:

(إذا فاض نهر التيبر, ووصلت مياهه إلى الأسوار. وإذا ما انخفض منسوب مياه النيل, وجفت الحقول. وإذا ما أمسكت السماء أمطارها وإذا ما حدثت مجاعة أو طاعون, أو حتى أصاب الأرض زلزال, ارتفعت على الفور صيحة واحدة مكرره: ارموا بالمسيحيين إلى الأسود!..).

وعلى صعيد المجتمع المسيحي الوليد, ظهرت في القرن الثاني الميلادي أيضاً جماعات غلبت عليها الأفكار الغنوصية, فكان لها إيمانها الخاص بالسيد المسيح, وأنكرت تماماً مؤسسة الكنيسة التي جعلت من نفسها واسطة بين البشر والمسيح الرب, كما أنكرت أيضاً تلك الجماعات الطبيعة البشرية للمسيح, باعتباره هو نفسه المخلص القديم. كما رفضوا

أيضاً قيامته بالجسد, واعتبروا أن قيامه هو ظاهرة روحية, لأن روحه ملأى بالنور الفياض. واهتمت تلك الجماعات بجوهر تعاليم المسيح ومغزاها الأخلاقي والإنساني, وليس بعملية الصلب والقيامة بشكلها الظاهري. بل أنهم ذهبوا لأبعد من ذلك, فقالوا أن وجود السيد المسيح على الصليب, إنما كان مجرد وجود وهمي متخيل. بينما ذهب فريق آخر منهم إلى أن المسيح كان قد اختفي تماماً قبل مسألة الصلب. وأن أعداءه اليهود قد أصابهم عمى البصيرة, فصلبوا سمعان الذي حمل صليب المسيح, كما اتخذوا أيضاً موقفاً عنيفاً من الكنيسة ورجالها.

على أن ذروة الاضطهاد الروماني للمسيحية وأتباعها قد تجلى إبان فترة حكم الإمبراطور دقلديانوس (284-305م), الذي تقلد الحكم في وقت ماج فيه المجتمع الروماني بالمسيحية, بل إن زوجته وابنته كانتا تدينان بالمسيحية, فضلاً عن بعض خدمه, واعتقد الإمبراطور الروماني أن باستطاعته التقريب بين مفهوم المسيحية القائم على الأب والابن وبين الوثنية, فجعل نفسه في حمى جوبيتر كبير الآلهة (الأب) وسمى نفسه (Jovius), أي المنتمى إلى جوبيتر, وجعل شريكه في حكم الإمبراطورية في الغرب الأوغسطس ماكسيميان, تحت حماية هيراكليس ابن جوبيتر (الابن) الذي أسماه (Heraclius), وظن أنه بهذا قد يضمن قبول المسيحيين. غير أن ذلك لم يحدث, الأمر الذي دعاه إلى القيام بعمليات اضطهاد عنيفة ضد المسيحيين, خاصة بعد تهديدهم بشكل جدي للإمبراطورية الرومانية, عبر انتشار المسيحية بين رجال وقادة الجيش, مما أفضى إلى ضعف رابطة الولاء للإمبراطور. فأصدر عدة مراسيم منع فيها صلاة المسيحيين, بل وأمر بهدم كنائسهم وإحراق كتبهم, وحبس قساوستهم, وطردهم نهائياً من الوظائف الحكومية.

وبالفعل قتل الكثير من المسيحيين على عهد دقلديانوس وخاصة في مصر, حيث أسمت الكنيسة المصرية فترة حكم دقلديانوس بعصر الشهداء. ومنه استمدت تقويمها القبطي المعمول به حتى الآن. فقد كان يجري لف المسيحيين في بعض الأحيان في جلود الحيوانات الضارية لكي يلقوا حتفهم بواسطة إطلاق كلاب الصيد عليهم, أو كان يجري دقهم بالمسامير في الصلبان, أو إحراقهم واستخدام جثثهم كمشاعل لإضاءة طرق الليل.

ولدينا شهادة مؤرخ الكنيسة الأشهر, يوسابيوس القيساري حول اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين في مصر, واندفاعهم نحو الشهادة بحب وفرح:

(وشاهدنا الحماسة العجيبة جداً, والنشاط والغيرة التي أبدوها على المسيحية, فعندما كان يصدر الحكم على أول شخص منهم, كان الباقون يندفعون الواحد تلو الآخر إلى منصة القضاء, ليعترفوا أنهم مسيحيون. وكانوا لا يبالون بأشد أنواع التعذيب فيعترفون بكل جرأة وبسالة بديانة إله الكون. وكانوا يتقبلون حكم الموت النهائي بفرح وبشاشة, وهكذا فقد كانوا يرنمون ويتهللون ويقدمون التسابيح والشكر لإله الكون إلى النفس الأخير...).

غير أن قسمات العالم القديم قد تغيرت بحلول القرن الرابع الميلادي, وذلك عبر اعتراف

الإمبراطور الروماني قسطنطين بالمسيحية كدين جديد. وكذلك بإنشائه مدينة القسطنطينية (عام 330م), لتصبح بمثابة روما الجديدة. وهكذا دخلت الإمبراطورية الرومانية والدين المسيحي نفسه مرحلة جديدة. والحقيقة أن المؤرخين قد اختلفوا حول سبب تغيّر سياسة الأباطرة الرومان, وانتهاج الإمبراطور قسطنطين سياسة مغايرة لأسلافه تجاه المسيحية والمسيحيين, وهل كان ذلك الاعتراف (الإمبراطوري) بالمسيحية اعترافاً دينياً صادقاً, أم مجرد اعتراف (سياسي) هدف من ورائه إلى تهيئة المناخ للانتصار على شريكه في الحكم ماكسنتيوس؟

وقد روجت المصادر الكنسية رواية للمؤرخ الكنسي المعاصر يوسابيوس, ذكر فيها أن الإمبراطور شاهد بعد غروب شمس أحد الأيام, بينما كان في طريقه لملاقاة خصمه وشريكه ماكسنتيوس, هالة من النور مضيئة في السماء على شكل صليب وتحتها عبارة (.. ستنتصر بفضل هذا!). وفيما بعد وأثناء نوم الإمبراطور في تلك الليلة, رأى في منامه السيد المسيح يحمل صليبه, وقد أوصاه باعتناق المسيحية, ورفع الصليب قبيل معركته المرتقبة.

وهكذا حاولت الرواية تكريس مصداقية تلك الرؤيا, الأمر الذي أدى إلى قيام الإمبراطور بالاعتراف بالمسيحية, وبقداسة السيد المسيح.

وعلى الرغم من اعتراف قسطنطين بالمسيحية, فإنه حاول -في نفس الوقت- إيجاد توازن بين النظام الديني القديم (الوثنية) والوافد الجديد (المسيحية), حدث هذا في نفس الوقت الذي حاول فيه قسطنطين الحفاظ على الامتيازات الدينية السابقة للإمبراطور الروماني, فاحتفظ باللقب الذي كان يحمله أسلافه الرومان (Pontifex Maximus) (الكاهن الأعظم). واحتوى بلاطه في نفس الوقت على العديد من رجال الدين المسيحيين إلى جانب الكهنة والفلاسفة الوثنيين, كما قسمت الوظائف الكبرى بين المسيحيين والوثنيين, بل إن النقود التي أمر بسكها احتفظت أيضاً بإشارات تدل على المسيحية والوثنية أيضاً.

وعلى أية حال, فقد ساوى مرسوم ميلان (313م), الذي سبق أن أصدره قسطنطين, واعترافه بالمسيحية كدين رسمي في الإمبراطورية الرومانية بين الرعايا الرومان المسيحيين, وبين الرعايا الرومان الآخرين أتباع الشرائع الأخرى. ومن ثم انتقل المجتمع الروماني الذي بدأ من بعد اعتراف الإمبراطور بالمسيحية, من الصبغة الوثنية للمجتمع إلى صبغة دينية جديدة, غير أن المرحلة الجديدة أيضاً كان لها مشاكلها على صعيد الفكر اللاهوتي, فنظراً لانتشار المسيحية في وسط ثقافي وفكري متفلسف ومتشبع بروح الفلسفة والتراث اليونانيين, فقد كثر الجدل حول طبيعة الأب والابن, مما أفرز فرقاً ومذاهب مسيحية منذ القرن الأول للاعتراف الروماني بالمسيحية. ولدينا شهادة عن ذلك كتبها القديس جريجوري أسقف نيسا (Nyssa) الذي عاش في القرن الرابع الميلادي (340-400م), والذي ذكر أن الحديث عن المسائل اللاهوتية قد تغلغل في مجتمع العاصمة

المسيحية الجديدة, القسطنطينية, ولم يقتصر فقط على رجال الدين واللاهوت, بل شاركت فيه كافة فئات المجتمع في محاولة لإيجاد حل, وكذلك عبر رغبة في إقناع باقي الطوائف المجتمعية بتصوراتهم اللاهوتية.

ويبدو أن الجميع بلا استثناء في المجتمع المسيحي الجديد كان يدلي بدلوه في هذه المسألة اللاهوتية البحتة, فيذكر لنا القديس جريجوري أنه حتى العمال والعبيد كان لهم رأيهم الخاص في هذا الأمر الفلسفي المعقد. وحسب نص عباراته:

(لقد كان العمال والعبيد في مدينة القسطنطينية مشتغلين باللاهوت, فإذا ما قصدت صرافاً لاستبدال قطعة نقود فانه لا يكتفي بأداء عمله, بل يوقفك ليروي لك وجه الخلاف بين طبيعة الابن والإله الأب.... ليس هذا فقط, بل انك إذا توجهت لشراء الخبز, وسألت صاحب المخبز عن السعر, فانه يضمن رده عليك بأن الابن يجب أن يكون دون الإله الأب, وكذلك فانك إذا طلبت من الحمامي في القسطنطينية أن يعد لك الحمام, أجابك بأن الابن وجد من لا شيء...).

والحقيقة أن الخلاف الفكري الذي حدث بين اثنين من رجال كنيسة الإسكندرية حول طبيعة السيد المسيح هو الذي تسبب في ذلك كله, وكانت له تداعياته الكبرى على مستقبل المسيحية نفسها. إذ ذكر القس أريوس أن المسيح الابن لا يتساوى مع الإله الأب في المستوى والقدرة. وهكذا يصبح المسيح مخلوقاً لا إلهاً, وإلا كان المسيحيون يعبدون إلهين. أما الأب أثناسيوس فذكر أن فكرة الثالوث المقدس تحتم أن يكون الأب مساوياً للإله تماماً في كل شيء, ولأن مذهب أريوس كان أكثر عقلانية, فقد انتشر في الولايات الرومانية الشرقية التي مازال تأثرها بالفلسفة والحكمة اليونانية, بينما انتشر مذهب أثناسيوس في الغرب الروماني اللاتيني. وألقى هذا الخلاف بظلاله الكثيفة على المجتمع المسيحي الروماني, إذ انتمى معظم المفكرين والفلاسفة في روما والشرق إلى المذهب الأريوسى, على حين انتمت معظم الطبقات الوسطى والدنيا إلى مذهب أثناسيوس.

وهكذا وجد الإمبراطور قسطنطين نفسه في ورطة كبرى, فدعى إلى عقد أول مجمع مسكوني عالمي في تاريخ الكنيسة المسيحية في مدينة نيقية Nicea (ازنيق Iznik الحالية القريبة من استانبول) وذلك في العام (325م). واستقر أمر المجتمعين على نبذ مذهب أريوس ونفيه إلى الغرب, بينما تم تبنى مذهب الأب أثناسيوس القاضي بتساوي الابن مع الأب.

وعلى الرغم من عملية التوازن التي حاولها قسطنطين بين الموروث الوثني والوافد المسيحي, فان سياسة أبنائه الثلاثة قد تغيرت إزاء الوثنيين وذلك بسبب ازدياد الصبغة المسيحية للمجتمع الروماني. ونتيجة للنجاحات المتتالية للمسيحية, وكذلك لدور المؤسسات الكنسية, قام أبناء قسطنطين بحملات اضطهاد ضد التراث الوثني ومعابده وممتلكاته, وبالغوا في معاقبة الوثنيين, حتى أنهم أصدروا مرسوماً عام (340م) يقضى بمنع تقديم القرابين للآلهة الوثنية, ثم قاموا بعد ذلك بعدة سنوات بإغلاق كافة المعابد الوثنية في

الإمبراطورية الرومانية المسيحية.

غير أن كل ذلك قد تغير, وعاد التوازن المفقود مرة أخري بين الوثنية والمسيحية, على عهد الإمبراطور جوليان (Julian), الذي تصفه المصادر المسيحية بجوليان المرتد, الذي أعلن بعد اعتلائه العرش الروماني (361-363م) تخليه عن المسيحية وعودته إلى التراث الوثني اليوناني والروماني.

وهكذا كان من الطبيعي أن يعاد فتح المعابد الوثنية التي أمر أبناء قسطنطين بإغلاقها بعد أعاد جوليان الاعتبار للوثنية ومعتنقيها. ويذكر المؤرخون المعاصرون له أنه لم يعاد المسيحية في نفس الوقت, بل أراد إيجاد نوع من المساواة بين الوثنية والمسيحية, حسبما كان مقرراً في مرسوم ميلان (313م).

غير أنه يتعين القول أن الإمبراطور الوثني جوليان لم يستطع التغافل عن مزايا المسيحية, خاصة ما تتصف به من الرحمة والتسامح والدعوة إلى العطف على المرضى والمساكين والفقراء, لدرجة أنه كتب ذات مرة إلى أحد أتباعه من الكهنة الوثنيين يذكره بأن المسيحية تتفوق في هذا الأمر.

ولأن جوليان كان في الأصل مثقفاً وفيلسوفاً, فقد قاوم المسيحية بالكلمة, فنشر كتباً ضد هذا الدين الجديد, أهمها كتابه (ضد الجليلين), الذي اختفى معظمه, ولم يتبق منه إلا شذرات قليلة. وفيه يهاجم المسيحية قائلاً:

(يبدو من المناسب أن نعرض على الناس الأسباب التي دعتني إلى التأكيد على أن المؤامرة التي ابتدعها الجليليون ليست إلا محض اختلاق, وعلى الرغم من أن هذا الاحتيال لا يوجد به أي شيء إلهي, فانه قام بخداع خيالنا المحب للأساطير).

غير أن صحوة الوثنية القصيرة لم تلبث أن وئدت بعد عامين فقط, إذ قتل جوليان في إحدى حملاته على الفرس (363م) بواسطة أحد الجنود الرومان المسيحيين, بتحريض من المصادر المسيحية العليا, وهو ما دعي الإمبراطور الوثني لأن يتلفظ ساعة احتضاره بعبارته الشهيرة (.. الآن قد انتصرت أيها الجليلي...).

بعد ذلك أعاد الأباطرة الرومان المسيحيون الذين جاءوا بعد جوليان الاعتبار للمسيحية وتخلوا عن لقب (الكاهن الأعظم) الذي اتخذه قسطنطين وخلفاؤه, وعادوا إلى سياسة مصادرة التراث الوثني والتضييق على الوثنيين قبل أن يتحولوا بشكل سافر إلى تحريم العبادة الوثنية وحرق كتبها, وهدم معابدها، بل واستغلال أحجارها القديمة والضخمة لدرجة أن دير القديس (بندكت) تمَّ تشييده على أنقاض معبد أبوللو في مونت كاسينو بإيطاليا. ثم جاءت الضربة الأخيرة للوثنية في القرن السادس الميلادي, على عهد الإمبراطور جستنيان (527-565م), الذي أمر بإغلاق مدارس الفلسفة الوثنية في مدينة أثينا, وقام أيضاً بإضفاء الصبغة المسيحية على القوانين الرومانية ذات الروح الوثنية.

ونظراً لأن بنية المسيحية قد ارتكزت على رجال الدين الذين مثلوا الواسطة الطبيعية بين الرعايا العلمانيين والرب, كان من الضروري أن تنمو وتزدهر مؤسسة الكنيسة في مسيحية العصور الوسطى. وهنا لابد من الإشارة إلى سابق قيامٍ القديس بولس Paul بدور كبير في تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى, كما قام أيضاً بوضع قواعد اللاهوت المسيحي, وما يرتبط به من فلسفة مسيحية, فضلاً عن جهوده في وضع دعائم الكنيسة الكاثوليكية العالمية. كما أن القديس مرقص كان أول من أرسل إلى مصر ليبشر بالإنجيل, وكان أول من أقام كنيسة في الإسكندرية وذلك حسب رواية المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيساري, الذي ذكر أيضاً أن القديسين بولس وبطرس قد استشهدا في مدينة روما إبان اضطهادات الإمبراطور نيرون عبر قطع رأس الأول, وصلب الثاني.

وكان من الطبيعي أن يرفع اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية من شأن المؤسسات الكنسية التي تجسدت في خمسة أماكن هامة من العالم المسيحي: روما والقسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس والإسكندرية. وتَبِعَتْ كل كنيسة مجموعة من الأسقفيات والأبرشيات التي انتشرت في كافة أرجاء العالم المسيحي. وبفضل اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية كدين رسمي, بدأت الكنيسة في تلقى الامتيازات المالية من الدولة, فضلاً عن حصولها على الهبات والاستثناءات من دفع الضرائب, مما ساهم في زيادة ثروات الكنيسة, فامتلكت الأراضي والضياع. وكذلك بفضل التبرعات التي قدمها التجار المسيحيون الأثرياء للكنيسة, وهو الأمر الذي كرس في النهاية, ازدياد هيبة رجال الاكليروس في أوساط الشعب المسيحي.

والحقيقة أن اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية قد خلق إشكالية في العالم الروماني / المسيحي الجديد, فمن المفترض, كما سلف القول, أن الكنيسة كان لها اليد الأعلى على الشعب المسيحي, وكذلك فإن قسطنطين -رغم مسيحيته- كان يصرُّ على التمسك بالإرث السياسيِّ الروماني القديم الذي يضع الإمبراطور في المكانة الأعلى بالنسبة إلى شعبه. ومثّلت إشكالية من له السلطة الأعلى على الآخر, الكنيسة أم الإمبراطور, أولى حلقات الصراع الكنسي / العلماني في تاريخ المسيحية. ومن هنا يمكننا أن نفهم مغزى اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية من الأصل, فقد آمن بها دون اعتراف بدور الكنيسة داخلها, إذ أمل أن تظل مرتبة الكنسية دون مرتبة الإمبراطور, وحسب قول أحد المؤرخين: لقد أراد قسطنطين للكنيسة أن تعلو بيديه, لا عليهما !.

وهكذا, فعلى الرغم من اعترافه بالمسيحية, فانه حاول جاهداً تقليص دور كنيسة القسطنطينية, فرفض التخلي عن وضعه الموروث, ولم يقبل رغم كونه أحد الرعايا المسيحيين, أن تعلو الكنيسة فوقه وهو الإمبراطور الروماني. ولهذا فقد كان دائماً هو الشخص الأعلى مكانة وأهمية في الإمبراطورية المسيحية الجديدة, لدرجة أنه منح نفسه الحق في الدعوة لعقد المجامع الكنسية المسيحية الأولى, كمجمع نيقية (325م وصور 334م).

وساهمت سياسات الإمبراطور قسطنطين وخلفاؤه في تحجيم دور البطاركة في الكنائس الشرقية, على عكس ما حدث في كنيسة روما التي ارتبطت بذكرى مؤسسها القديس بطرس الذي اتخذ منه المسيح الصخرة التي بنى عليها كنيسته, فضلاً عن منحه مفاتيح ملكوت السموات والأرض.

ونظراً لأن بطرس يعد زعيم الحواريين ومقدم الرسل, فقد رأى بابوات روما أنهم خلفاؤه, وأنهم بالتالي أحق الناس بتولي زعامة العالم المسيحي. وهو ما تبلور فيما بعد عبر ما سمى (بنظرية السيادة البطرسية) على كافة كنائس العالم المسيحي.

وكذلك الحال, فقد تفوقت كافة الكنائس الأخرى في العالم المسيحي على كنيسة القسطنطينية, لأن الأخيرة افتقرت إلى مؤسس من الرسل والحواريين, وهو الأمر الذي حدث عند تأسيس كنائس روما والإسكندرية وإنطاكية.

حدث هذا على الرغم من مساندة الأباطرة الرومان في الشرق لكنائسهم, ومحاولتهم إيجاد نوع من المساواة بين كنيسة القسطنطينية, العاصمة الجديدة, وكنيسة روما. بل إنه تم عقد مجمع جديد في خلقدونية لتعزيز هذه الفكرة, غير أن مندوب البابا (ليو الأول) عارض ذلك مستشهداً ببعض قرارات مجمع نيقية حول أسبقية كرسي روما.

وساعدت الظروف التاريخية البابوية الكاثوليكية في روما على تبوء مكانتها الكبرى في الغرب الأوروبي, إذ حدث في القرن الخامس الميلادي أن لقيت جيوش الإمبراطورية الرومانية هزيمة كبرى (عام 476م) على يد قبائل القوط الشرقيين, مما أسفر عن سقوط الجزء الغربي للإمبراطورية في قبضة تلك القبائل الجرمانية, وهو الأمر الذي دعم مكانة كنيسة روما بوصفها السلطة الوحيدة في الغرب الأوروبي, إذ لم يعد ينافس البابا أية شخصية علمانية كبرى, وأصبح الحاكم المطلق في الغرب, باعتباره مصدر التشريع المسيحي. واعتلى الكرسي البابوي في روما خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين عدد من البابوات العظام الذين رسموا الدور السياسي والديني للكنيسة في الغرب الأوروبي وأهمهم ليو الكبير (440-604م) الذي لعب دوراً خطيراً في تكريس التطور النهائي للبابوية كمؤسسة منفردة بالغرب الأوروبي, حيث فرضت نفوذها على كافة المؤسسات الدينية في الغرب الأوروبي بأكمله, رافضة وصاية الإمبراطور أو الملوك العلمانيين.

وكان من الطبيعي أن تصبغ الكنيسة المجتمع الذي أصبحت تمثل المرجعية الأولى له بالصبغة المسيحية الكاملة, ولما كان الاقتصاد يمثل ركناً هاماً من أركان المجتمع الروماني المسيحي, فقد تدخلت الكنيسة في الاقتصاد من أجل فرض قواعد ومفاهيم مسيحية جديدة عليه. ففي ظل القانون المدني الروماني, في مرحلة ما قبل المسيحية, كان المبدأ الاقتصادي السائد أن يهتم كل شخص بنفسه, وكان الشعار المعمول به (دع المشتري يكون على حذر) أي أن عليه أن يقوم بفحص ما يشتريه بنفسه قبل تقدير قيمته. وأن يتحمل نتيجة ذلك. أما بعد ظهور المسيحية, فكان من الضروري أن تجبر الكنيسة

القوانين الرومانية على التحول لتتماشى مع الكتاب المقدس. وهكذا لجأت إلى تأكيد آيات من نوع (فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً) إنجيل متى - الإصحاح 7: 12.

وخلال القرون الأربعة الأولى, بدأ المفكرون المسيحيون في التوجس من المثالب الأخلاقية للتجارة, فعلى سبيل المثال ذكر (يوحنا ذهبي الفم) (ت 407م) (أن من اشترى مواداً بغير نية بيعها, دون أن يحدث تغييراً بها, بل من أجل أن يصنع منها مادة جديدة, فان هذا الشخص لا يعتبر تاجراً لكن الرجل الذي يشتري شيئاً بقصد الكسب من بيعه ثانية دون أن يحدث تغييراً فيه, بل كما اشتراه, فإنه يكون أحد المشترين أو البائعين المنبوذين من كنيسة الرب).

ومن الواضح هنا أن الكنيسة قد تدخلت في أبسط عمليات التبادل التجاري داخل المجتمع المسيحي الواحد, فحسب رأيها أنه يمكن للشخص المسيحي أن يشترى خامات لعمله الخاص, أما إذا قام بشراء بضائع لمجرد بيعها بسعر أعلى, دون أن يضيف إليها, فان ذلك يوقعه في الخطيئة. واستمر هذا التصور الكنسي للتجارة حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي لدرجة أن توما الأكويني واجه بعض الصعوبة في تفسير كلمات (يوحنا ذهبي الفم) وهو ينظر إلى التجارة بوصفها عملاً مرذولاً, وأنها نتيجة لطبيعة الإنسان المعرض للسقوط في الخطيئة, إذ لابد أن الجنة لم تقم فيها أية تجارة. كما أن القديس أنطونيو في القرن الخامس عشر الميلادي حاول ألا يعارض كلمات القديس يوحنا ذهبي الفم, لكنه حاول أيضاً أن يخفف من قسوتها على الحياة التجارية للمجتمع الأوروبي المسيحي, فذكر (أن التجارة في ذاتها شيء محمود, إذ يمكن أن تكون جيدة ومسألة إيجابية إذا قنع التاجر بكسب شريف يضمن له الكفاف من العيش. بحيث إذا زاد كسبه عن ذلك توجب عليه توزيع فائض دخله على الفقراء). وهكذا برز مبدأ السعر العادل الذي أقرته الكنيسة في العصور الوسطى.

ومع ظهور الثورة التجارية في أوربا على يد المدن الإيطالية (البندقية - جنوا - بيزا) منذ القرن الثاني عشر الميلادي, وتزايد حركة التجارة بين الشرق والغرب, بدأت مشكلات جديدة في الظهور أهمها مسألة الربا, الذي كان خطيئة كبرى وجرى تحريمه صراحة في الكتاب المقدس عبر العديد من الآيات. ونظراً لما مثلته مسألة الربا والقروض من فائدة كبرى في حركة التجارة آنذاك, كان من الصعب على الكنيسة الإمساك بالتجارة في حال التلبس في ظل التلاعب في بنود عقود القروض. فمن أجل تفادي التحريم الكنسي للربا, كان يتم إخفاء نسبة الزيادة عن طريق كتابة مبلغ كبير في العقود, أكبر من المبلغ الذي تم إقراضه بالفعل.

وهكذا لم تجد الكنيسة أمام ذلك سوى أن تترك التاجر وضميره الديني, وأن تعلنه فقط أنه إذا ما أقرض نقوداً بقصد الحصول على فائدة, كان ذلك ربا وخطيئة مميتة. أما إذا كانت نيته تقديم مساعدة دون أن يتقاضى من ورائها سوى ما يكفيه لتغطية أية خسارة قد يكون

قد تعرض لها, فلا ضرر من ذلك.

غير أن الظروف الاقتصادية القاسية في الغرب الأوروبي في العصر الوسيط دفعت العديد من المقرضين والتجار إلى عصيان أوامر الكنيسة, بل إنها دفعت العديد من الأديرة نفسها إلى التمرد على تعاليم الكنيسة, وإلى قبول الفوائد التجارية التي كانت تحصل عليها نتيجة استغلالها لرؤوس أموالها عبر إقراضها بالربا, حتى يتسنى لها تثبيت كيانها الديني والقيام بواجباتها.

وعلى صعيد المجتمع الأوروبي في نهاية الألفية الأولى, كان معظم المسيحيين في أوروبا يعتقدون أن العام (1000م) إنما يمثل نهاية العالم. جاء ذلك بفضل إحدى الفقرات الواردة في سفر الرؤيا (رؤيا يوحنا اللاهوتي) التي تنبأت بأن نهاية العالم سوف تحدث بعد موت السيد المسيح بألف عام. وربما رأت الدهماء في ذلك عقاباً إلهياً تجلى في المصاعب المادية والبشرية التي مرت بها القارة الأوروبية. وعندما مرَّ العام الألف بسلام بدأ المجتمع المسيحي في التخطيط بأمان للمستقبل واختفت الأفكار الألفية والأخروية. وبدأت بواكير النهضة الأوربية الأولى في القرن الحادي عشر الميلادي.

وعلى صعيد البنى الاجتماعية للمجتمع الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى, يمكن القول بأن المجتمع قد تألف آنذاك من ثلاث طبقات رئيسية, هي طبقة اللوردات والسادة الإقطاعيين والنبلاء (الذين يحاربون), وطبقة رجال الاكليروس في الكنائس المسيحية المنتشرة بطول أوروبا وعرضها (الذين يصلون), وطبقة الفلاحين والعبيد والأقنان الذين يعملون في الأراضي الإقطاعية التابعة للنبلاء (الذين يعملون). وما يلفت النظر هنا أن تلك الطبقات الاجتماعية لم تكن تسمح بحدوث أية نوع من أنواع الحراك الاجتماعي (Social Mobility) الصاعد أو الهابط. بل كانت تمثل ما يمكن تسميته بالمثلث الاجتماعي الأوروبي في العصور الوسطى, بحيث مثَّل السادة ورجال الاكليروس ضلعيه, ومثَّل الفلاحون والعبيد قاعدته. واستمرت تلك الطبقات على وضعها, وكذلك الحال مع أبنائها الذين ظلوا داخل نفس الطبقة, مما أحدث العديد من المشاكل الاجتماعية الكبرى, فعلى سبيل المثال كان أبناء السيد الإقطاعي بالضرورة ضمن الطبقة الإقطاعية على الرغم من أن القانون الإقطاعي في فرنسا آنذاك -على سبيل المثال- كان لا يجيز توريث الإقطاع سوى إلى الابن الأكبر فقط.

وترتب على ذلك حرمان باقي الأبناء من الأراضي الإقطاعية, مما أوجد مشكلة كبرى تجلت في وجود العديد من السادة الإقطاعيين الجدد دون إقطاع. وهو ما أدى في نفس الوقت إلى حدوث ما أسماه المؤرخون حالة (الجوع إلى الأرض), الأمر الذي تسبب في نشوب الحروب الإقطاعية التي اجتاحت الغرب الأوروبي قبيل الحركة الصليبية , بحثاً عن إقطاعات جديدة.

وتوجب على الكنيسة الكاثوليكية القيام بمسؤولياتها إزاء تلك الحروب, من أجل إيقاف إراقة الدماء المسيحية, فتدخلت عدة مرات عبر محاولة إقرار صيغ لوقف الاقتتال عبر ما

تمت تسميته بـ(سلام الرب) و(هدنة الرب) دون جدوى, بسبب فشلها في معالجة الأسباب الحقيقية للاقتتال المسيحي, إذ (لا سيد إقطاعي بدون أرض).

وفيما بعد استطاع البابا أريان الثاني إيجاد حل سحري لهذه المشكلة الكبرى, عبر دعوته للحركة الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر, وتحريضه لكافة السادة الإقطاعيين من أجل الاستيلاء على أراض المسلمين في فلسطين وبلاد الشام تحت دعاوى إنقاذ قبر الرب. وساعتها فقط انفرط عقد المجتمع الأوروبي, فقد اندفع الفرسان والنبلاء الباحثين عن أراض جديدة إلى الشرق, بل إن الفلاحين والعبيد هجروا أيضاً أراضي السادة الإقطاعيين ضاربين عرض الحائط بالقوانين الإقطاعية التي تحرم عليهم هجران أراضي أسيادهم الإقطاعيين, والتحقوا بالجيوش المتقدمة صوب فلسطين من أجل كسر الطوق الاجتماعي الخاص بهم, والبحث عن لحظة حراك اجتماعي تدفع بهم إلى مصاف الفرسان وملاك الإقطاعات في (...الأرض التي تفيض باللبن والعسل.....).

****

الحواشي

*) باحث وأكاديمي من مصر.

- يوسابيوس القيسارى, تاريخ الكنيسة, ترجمة القمص مرقس داود, القاهرة, 1973م.

- يوسابيوس القيسارى, حياة قسطنطين العظيم, ترجمة القمص مرقس داود, القاهرة, 1975م.

- ا. س. سفينسكايا, المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية, ترجمة حسان ميخائيل إسحق, دمشق, 2006م.

- محمد عبد الغني, أضواء على المسيحية المبكرة, الإسكندرية, 1985م.

- نورمان. ف. كانتور, التاريخ الوسيط, قصة حضارة : البداية والنهاية, ترجمة قاسم عبده قاسم, القاهرة, 1999م.

- موريس كين, حضارة أوروبا في العصور الوسطى, ترجمة قاسم عبده قاسم, القاهرة, 2000م.

- جوزيف نسيم يوسف, أوروبا العصور الوسطى, النظم والحضارة, الإسكندرية, 1965م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور, تاريخ أوروبا في العصور الوسطى, الجزء الأول, القاهرة, 1967م.

- حاتم الطحاوى, بيزنطة والمدن الإيطالية: العلاقات التجارية1081-1204م, القاهرة,

1998م.